# الفصل الثالث

# الاتجـــاه الـــذاتى

- الشاعر : المرأة .
- الشكوى .
- الشعر الدينى .
- الرثاء .

الشاعر والمرأة:

"لم يخل الشعر من المرأة غزلاً وتوداً وشغفاً وترقباً وعتباً وتعجباً ، وإذا كان الإحساس الفنى بالمرأة من بواعث الشعر وعوامل الانفعال، فلا يمكن أن نزعم أن كل شاعر بمقدوره أن يقول شعرا عاطفيا أو يعبر فى صدق عن مشاعر تغتاله وتؤرقه .....

فمن الشعراء من يحب المرأة ويهيم بها ولكنه لا يجيد التعبير عن خوالجه ومنهم من يجيد التعبير الفنى والتصوير العاطفى وليس له من القبول عند المرأة ما يساوى تعبيره وتصويره". (١)

وفى العصر الحديث لقيت العاطفة اهتماما كبيرا عند الشعراء المحافظين ولكنها كانت عاطفة تقليدية ، حيث أعادوا الصور القديمة للغزل فى صياغة جديدة فتغنوا بسواد العين ودقة الخصر وبياض الجسد ونقاء البشرة .

ثم جاء بعدهم إلى التفنن فى الغزل ، فوقفت على مدارس النقد فى الغرب، وحاولت أن ترفع بصرها إلى الغزل العالمى ولكنها لبثت مع الشعر العربى فى إخاء ووفاء ، ومن هؤلاء شعراء جماعة الديوان". (٢)

وقد تجاوزت المرأة عند شعراء المهجر النطاق المادى المحدود الذى رأيناه عند الديوانيين، " وارتفعت عن كونها مجرد كائن يثير لذة الإحساس بالمغايرة الجنسية وأصبحت عنصرا من أرقى عناصر الصياغة التى يستغلون قدراتها الإيحائية فى التعبير عما يريدون ، ولكن ذلك لا يعنى أنهم أغلقوا قلوبهم دون الإحساس بالمرأة

---

١ - د :عبدالله سرور الميلاد وحكايات الخريف ، ص ٤٩.

٢ - السيد تقى الدين السيد : على محمود طه حياته وشعره ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، الكتاب الأول١٤ ، ص ١٨٣.

بوصفها كائناً من كائنات الله الجميلة، فقد كان لها على هذا الاعتبار مكان ملحوظ فى تجاربهم الشعرية". (١)

بينما اختلفت نظرة شعراء أبوللو للمرأة فنجد منهم من "يكلف بالمرأة روحاً ووجداً وعذاباً، وبعضهم يهيم بها جسداً ومتعة ونعيماً، ومن النوع الأول إبراهيم ناجى ، والهمشرى، ومن النوع الثانى على محمود طه ، وصالح جودت ...ومع هذا كان شعراء هذا الاتجاه يجلون المرأة ويكبرونها ، وكانوا يغفرون زلاتها ويلتمسون الأعذار لآثامها". (٢)

أما بالنسبة للمرأة التى تعامل معها يس الفيل فهى نمط خاص من النساء، حيث كانت فى معظم الحالات خائنة غادرة ، لذلك نادراً ما نجد فى شعره فرحة اللقاء أو حرقة الفراق أولحظات التوافق والسعادة ، فرائحة الخيانة تفوح كثيراً من قصائده ، وهو من أجل هذا لا يصفح ولا يغفر ولا يلتمس لها الأعذار ومن هنا كان شعره فى المرأة لوناً من ألوان الشكوى .

وهذا يدلنا على أن تجاربه فى الحب كانت محبطة ولعل السبب فى إحباطها ظروفه المادية المتواضعة فى تلك الفترة فالمرأة لا تبغى من الرجل الحب فحسب ، ولكنها غالباً ما تميل إلى الرجل الذى ينفق ببذخ ، وكثيراً ما وقف الفقر حائلاً بين المحبين .

وقد يكون إخفاقه فى الحب راجع إلى نشأته الريفية المحافظة ، وإلى العادات والتقاليد التى تربى عليها ولا شك فى أنها تختلف عما وجده فى المدينة .

---

١ - د.عبدالحكيم بلبع:حركة التجديد الشعرى فى المهجر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠ ص١٩٨ ، ١٩٩.

٢ - د. أحمد هيكل :تطور الأدب الحديث فى مصر دار المعارف القاهرة، ط ٤ ، ١٩٨٣ ص ٣١٣ ، ٣١٤.

أما اتجاه شعر الحب عند يس الفيل فهو الحب السامى العفيف ؛ حيث لم يهتم بالجوانب الحسية عند المرأة التى ترتبط غالبا بالرغبة العارمة لأنه يبغى منها جمال الروح ونقاء الإحساس . ويرى أن فضيلة الحب تكون بمقدار عفة صاحبه فيه وهو دائم التغنى بطهر عاطفته : (١)

عشناه أروع ما يكون وعاشنا ... ثقة تحدت فى الغرام سوانا
بالطهر أسكرنا وغيب وعينا ... لكنه بالحمق ما أغرانا

فهو ينشد درب الحب الطاهر العفيف المتسامى والمتعالى على النزعة الحسية: (١)

الحب ليس شفاهاً ترتوى بدمى ... ولا عيوناً تذيب القلب من حور
ولا قواماً ولا صدراً ولا عنقاً ... عليه تلتف أخلاط من الدرر

وتأكيدا لهذا الاتجاه المتسامى فى الحب نراه فى قصيدة " بقايا جراح " يتحدث عن فتاة صدمت فى حبيبها عندما نال منها ما نال . . فوقعت هذه الفتاة العليبة فى شراك هذه الخبيث الذى رسم لها دور المحب العفيف . فهذه القصيدة تعبر عن فكر الشاعر وإنكاره لهذا الحب الشهوانى . فيرسم صورة لهذه الفتاة المخدوعة ملؤها الاسى والألم :(٢)

أسرفت يوما فى العطاء ...براءة ... والحب لا يخضر فى الإسراف
ورماك...حين رآك طهراً وانبرى ... لسواك بين مجاهل وفيافى
نصب الشباك تضرعاً وتذللاً ... وكسا خديعته ثياب عفاف
حتى إذا وقعت فريسة زيفه ... وانقض فى ضعة وفى استخفاف
واستل منها درة مخبوءة ... فى القاع بين مشاتل وضفاف
وترنحت مأخوذة وتلفتت ... من ينبرى لطلاسم العراف
من يستر الجرح البرئ بخاطرى ... ويذيب فى وهج الصباح جفافى

---

١ - الميلاد وحكايات الخريف ، ص ٤٩.

لم يستجب غير الصدى لنداتها حين استقرت في يد السياف

وشعر يس الفيل في المرأة التقت فيه النزعه الرومانسية وهذا يبدو في حديثه عن رؤيته المثالية للحب وسموه به عن الدنايا وتعففه ، والنزعة الواقعية كما في حديثة عن الفتاة التى صدمت فى حبيبها عندما حاول أن ينتهك قداسة الحب.

وللبيئة أثر فى الشعر العاطفى عند شاعرنا فقد نشأ فى بيئة "لا تسمح بالغزل ولا تترخص فى لقاء الرجل بالمرأة وإنما تعرف العيب وتلتزم بالآداب والعرف العام".[1] ونستطيع أن نلمس آثار هذه البيئة فى قصيدة بعنوان "لا" فهو لا يصرح بالحب ، وإنما يؤثر الكتمان لأنه وجد فيه راحته وأمانه:[2]

لم نخبر النجم البعيد بسرنا صناه حتى عن دفين رؤانا

وبه قطعنا رحلة أبدية كتمانه ألقى عليه أمانا

وكل ما يستطيع أن يفعله أن يختلس الموعد البرئ بعيداً عن أعين الرقباء:[3]

حتى إذا سكنت عواصف حقدهم وارتاع لائمهم وعاد مهانا

وتراقصت بين الشواطىء موجة ورسا الشراع بنا على مرفانا

عدنا...وعاد اللحن في صدحاتنا نغماً ربيعى الجوى ظمآنا

يحكى عن الأمل المؤرق بيننا عن سرنا يحكى وعن نجوانا

ويرى أن روعة الحب تكون فى ستره وخفائه لا فى كشفه وافتضاحه :[4]

والحب أروع ما يرى متستراً فى ستره لا سافراً عريانا

---

١- د. عبدالله سرور : الميلاد وحكايات الخريف ، ص ٤٩.
٢ - الميلاد وحكايات الخريف ، ص ٤٨.
٣ - السابق ، ص ٥١.
٤ - السابق ، ص ٤٩.

وقد عد الدكتور محمد حسن عبدالله إيثار الكتمان على البوح أمراً غريباً حيث يقول: "ومع غرابة هذا الهوى وهذا التصرف فى سلوك المحبين الذين يجدون راحتهم وعلامة صدقهم فى البوح الذى يأخذ شكل إشهاد الآخرين على صدق العاطفة . ومع كل هذا فمن حق الشاعر أن يجد سعادته وأمانه فى الكتمان" .[1] ولكن البوح الذى يتحدث عنه الناقد لا يتناسب مع البيئة الريفية التى تشبه إلى حد كبير المجتمع البدوى قديماً .

حيث كان الرجل لا يستطيع أن يلتقى بالمرأة إلا خلسة، وإذا افتضح أمرهما منع من لقائها بل ومنع من زواجها، لذلك كان المحبون يحرصون دائماً على الكتمان .

وقد اتخذ شعر الغزل عند يس الفيل أساليب مختلفة نظراً لتعدد تجارب الحب لديه، من هذه الأساليب حديثه عن الفراق الذى حدث بينه وبين محبوبته ورحيلها عنه بسبب زفافها إلى غيره وهى كارهة . يقول فى قصيدة "زورق حبى":[2]

ياساكنى مصر فى ثوب الزفاف أتى ... قلبى لكم وبـــــه الآلام تعتمـــل
ولو تخير مـــا اختـــار الزفـــاف ولا ... أراد غيرى مهما استعظم البـــدل
ولكنـــه جـــاء مقهـــوراً تزينـــه ... أكفانـــه ثـــم قلـــتم إنهـــا حـــل
ولو علمـــتم لأبقيـــتم علـــى أملـــى ... لكن جهلتم كما الآباء قد جهلـــوا
والأمـــر لله ...مـــالى حيلـــة أبـــداً ... فيما جرى وهى مثلى مالها حيل

وإذا كان الشعر ملئ بنموذج المرأة المعشوقة ، فإن يس الفيل أتى بنموذج آخر للمرأة يركز فيه على المعانى السامية فيها وعلى عواطفها وأحاسيسها كأم

---

١ ـ أنظر الدراسة المصاحبة لديوان الميلاد و حكايات الخريف للدكتور محمد حسن عبدالله ، ص ١٤٨ .
٢ ـ من خارج أسوار الليل ، ص ٨٩،٨٨ .

فيصورها فى حنوها وعطفها وهى تحتضن رضيعها وقد آثرت أن يكون حبها لطفلها: (١)

ماضيك دعه....ودع ذكرى لياليـنـا ... شبّ الرضيع فما جدوى تصابينا ؟
وما الهوى إن تكن غاضت موارده ... وما الضياء وقد غامت لياليـنـا ؟
وما اللقـاء وهـذا الطفـل يبعـدنا ... إن التقينا على أصـداء ماضـينا
ألست تـدرك أن الشـوق يـدفعنا ... إلى العناق وهذا الطفـل يثنينـا؟
وداعبت طفلها ضمته فـى جـزع ... وقبلتـه وقالـت : مـا بأيـدينا

فهذه القصيدة جاءت على نفس الوزن والقافية لقصيدة ابن زيدون النونية ولكن شاعرنا يريد أن يطرح موقفا معارضا تماماً لابن زيدون ، فبعد أن كان الشاعر الأندلسى يتوسل إلى صاحبته لتواصله بالحب والغرام ، نجد المرأة هنا ترجو صاحبها أن يعفيها من إغرائه ويدعها تتفرغ لتربية طفلها ، فالقصيدتان متفقتان فى الموضوع العاطفى ، ولكن شتان ما بين أنانية الموقف القديم بين الشاعر وصاحبته العابثة ، وبين الشاعر الحديث وصاحبته التى لا تريد أن تعيد تجربة انتهت بعد ما تزوجت وأنجبت .

ويس الفيل ينتهج فى قصيدته هذه سبيلاً أخلاقياً محموداً حيث لا يعمد إلى الاتصال بحبيبته بعد أن أصبحت لرجل آخر ، ولذلك نراه يقول فى ختام القصيدة وكأن كل ما ذكره كان حلماً: (٢)

وصحت بالفجر والآفاق توقظنى ... من نومتى يا إله الحب تهـدينا
قد كان حلما وليت العمر أجمعه ... حلم تدى ....من الأحباب يدنينا
استغفر الله مـا تعنيـه قولتهـا ... شب الرضيع فما جدوى تصابينا

---

١ - السابق ، ص ٩٤.
٢ - السابق ، ص ٩٧.

وعندما يصطدم بالواقع ويحس بقسوة الحياة من حوله فسرعان ما يعود إلى ذكرياته القديمة ويرى فيها عالمه المثالى ، والهروب إلى الذكريات وسيلة من الوسائل التى اصطنعها الرومانتيكيون للهروب من الواقع عندما لا يشعرون فيه بالسعادة .

وإذا كانت الحبيبة قد ابتعدت فهو أيضاً مبتعد . ولكنه يحيا على الشوق ويعيش على الذكريات كما يبدو من قصيدته من" ذاكرة الصمت والأشواق": (١)

وعينيك ما زلت رغم البعاد على الشوق أحيا بلا أمنيه
أعيش على ذكريات رحلن بكل اختلاجاتها المضنيه
وأسأل عنها ربيعا يجئ وأسأل عنها خريفا يروح
وأحيا طموحا وإن كنت أحيا بقلب تعثر فيه الطموح

"ومأساة الشاعر فى قلبه الذى يختلج وصدره الذى ينبض ، فهو يدفعه إلى طريق لا تتسع له، وقلب الشاعر هو نبضه وحياته ومصدر إلهامه وفتونه ، وهو الرائد الذى لا يهدأ والكاتب عن القلق والأرق والعواصف، ويحاول يس الفيل أن يكبح من جماح قلبه ويحول بينه وبين ما يبغى ، وتلك معادلة صعبة إذ كيف يصاحب الشاعر قلبه ويغفل عنه ويعيش به ولا يعيش له . ففى قصيدة "قلبى والأمل " نرى مدى التمزق الذى يعانى منه الشاعر، فهو منشطر يروم قلبه شيئا وهو يصدف عنه فتتأزم الأمور وتصل إلى حد يقول فيه الشاعر مخاطباً قلبه:

إلى متى أنت فى جنبى ترتجف ... وكيف عنك إذا ما شئت تنصرف؟
وكيف أنجو وعمرى أنت فرحته ... وأنت مأساته تهتز أم تقف ؟
وأنت واحة أحلامى إذا عصفت ... بى الظنون وأدمى هدأتى صلف
ترتد بى لزمان بات ينكرنى ... وتستبيح سبانا منه أغترف

---

١ - الميلاد وحكايات الخريف ، ص ٧٣ .

وتســـتبد بأيـــام أقـــام بهـــا شوقى وعربد فى أرجائهـــا تـــرف

لسنا على كل ما نرجـــوه نتفـــق فهل على الحب- يا مخدوع - نختلف[1]

وهناك ظاهرتان تتجليان بوضوح فى شعر الغزل عند يس القيل وهما :

الظاهرة الأولى : وتتمثل فى هجائه للمرأة الغادرة ، وشكواه من عدم وفائها له بعد أن وفى لحبيبة لم تقدر معنى الوفاء ، فأشاحت بوجهها عنه وكانت مصدر آلامه وشكه وإحباطه .

الظاهرة الثانية : وتبدو فى كبريائه الجريح الذى ارتضاه لنفسه ، مفضلاً الخسارة بشرف بدلاً من التذلل والهوان للعاشق العائد .

ففى قصيدة " دمية الليل " يطلعنا على مأساته العاطفية عندما منح للحبيبة قلبه ووهبها عمره ، وأعطى بإخلاص وكان يود أن يقابل هذا الإخلاص بالوفاء ، ولكنه قوبل بالغدر والخيانة ، فجاءت هذه القصيدة صدى لروحه المعذبة:[2]

مزارع النور أعوامـاً عصـرت لهـا دم الهوى ... وسكبت الدمع طوفانا

فأورقت...وازدهت ...واخضر برعمهـا على طريق حريرى الجـوى آنـا

تخبو فأوقـد شـمعى فـى معابـدها وتنطوى فأحيـل الصـمت ألحانـا

لكنهـا .. ووجـودى فـى معالمهـا يذوب ماقنعـت يومـاً بمـا كانـا

ولملـت كبريـائى بـين قبضـتها ولوّحت هكذا مـن عـاش يهوانـا

يا ضيعة الحب ..ما عشنا إذا عصفت بمـا نقدسـه أشـجان دنيانـا

---

١ - د. عبدالله سرور : الميلاد وحكايات الخريف ص ٥٦،٥٥.

٢ - أغنية بلا وطن ، ص ٣٢.

وكأن كبرياء الشاعر تمنعه من التصاغر أمام هذه الحبيبة التى خلقت فى نفسه الأسى وخيبة الأمل ، وما كان منه إلا أن نفض يده من غبار هذه الحب وأعلن خلو ساحته منه ، لأنه يأبى أن يأسره حبيب أو تقيده عاطفة: (١)

لكن نفس تـأبى القيـد تمقتـه ... وإن أحال جفاف العمر بستانا
وكبريائى هى الدنيا فإن أسـرت ... فما تكون ؟ وما يا نفس جـدوانا
فلملمى عطرك المشبوه وارتحلى ... إنا سئمناك ألحاناً وأحزانا
يا دمية الليل لن تغتال أغنيتـى ... وإن أحلت صفاء الروح بركانا

فهو لا يقتل نفسه غمّاً إذا هجره حبيب ،بل يبتعد فى كبرياء ، فكرامته وعزة نفسه تغلب على ما عداها ، ولعل هذا من آثار البيئة ، فالرجل خاصة إذا نشأ فى الريف لا يرضى لنفسه أن يرى مهزوزاً أمام من يحب ...وبس الفيل ليس بدعاً فى هذا فقد وقف العقاد من المرأة هذا الموقف عندما هجرته يقول فى قصيدة بعنوان " وداع هاجر": (٢)

لقـد جهلـت فحسـبى ... مضـى البقـين بريبـى
فـلا وفـاء لحـب ... ولا هنـاء لصـب
يـا غاضـباً لـيس يرضـى ... جـاوزت حـد التصـبى
عـلام هـذا التنـائى ... وفـيم هـذا التـأبى
قـد كنـت تعلـم عـذرى ... لـو كنـت أعلـم ذنبـى
ومـا أسـأت ولكـن ... حسـدتنى منـك قربـى
لا بـل تجنيـت عمـداً ... لمـا تبينـت حبـى
ليهنـك اليـوم قلـب ... تصـيده بعـد قلبـى

---

١ - السابق ، ص ٣٢ .
٢ - عباس محمود العقاد : ديوان عابر سبيل ، منشورات المكتبة العصرية – صيدا بيروت ، ص ٩٥ د .ت

لـــــيس التلهـــــف يومـــــا  علـــــى المفـــــارق دأبـــــى

ولكن المبالغة فى الكبرياء قد تكون سببا فى إفساد الحب ، فبلغت كبرياء الشاعر وتعاليه على المرأة حد الاعتدال فى بعض القصائد كما قوله: (١)

فارجع إلىّ كما أهوى .. فماً ويداً  أو فانتزع سهمك المغروس فى كبدى

فالمحب الصادق فى حبه لا يملى شروطه على محبوبه حتى يرجع إليه كما يهوى وقد يكون سبب هجائه للمرأة أنها غبية ، فيراها دون مستوى حبه: (٢)

أنا وأنت التقينا عبـــر مفتـــرق  من يومها بدأت فى الأرض مشكلتى

لاكنت لى واحة تحنو،ولا رحمت  يداك ، لحنا تلظى بـــين أوردتـــى

كنت الغباء ومن حولى اكتسى ملأ  ثوب الغباء فلم يحفـــل بأســـئلتى

ومن ثم فهو لا يرى ما يدفعه إلى الاستمرار معها: (٣)

كنت الذى كنت ما قلبى بمتســـع  ولا تجنيك أبقانى على صـــلتى

لن أستطيع فكونى سقطت عبرت  دنياى..وارتحلى يا ألف معصية

وقد تكون الفتاة التى تعلق الشاعر بها فتاة لعوب تجيد تمثيل دور الحب على كل عاشق ، لذلك فهو يعلن براءته من هذا الحب: (٤)

برئت من المحبـــة فاســـتريحى  وبوحى ما بدا لـــك أن تبـــوحى

فمن رقصت على مهج الضحايا  ومن سكرت على النور الجريح

فليس لها بروض العمر مـــأوى  به الأيام فـــى الـــزمن المليـــح

وينهى القصيدة بأن يعلن براءته من حب جائر لم يحافظ على نقاء وآثر الخيانة على الوفاء ، فانطفأ سراج فتونه ومات طموحه وسئم محبته لها :

---

١- صخب الأقنعة ، ص ٢٠ .
٢ - الميلاد وحكايات الخريف ، ص ١٠، ١١ .
٣ - السابق ، ص ١١ .
٤ - السابق ، ص ١٣٠ .

معاذ الحب أن ينهـار صـرح تألق عطـره بـين الصـروح
وأن يرتاح فوق يدى سـراجى وأن يرتـد منكسـراً طمـوحى
معاذ الحـب يـا دنيـاى إنـى سئمت محبتى لك فاسـتريحى[1]

وحديث يس الفيل عن غدر المرأة وخيانتها يذكرنا بالشاعر كامل الشناوى الذى كانت له تجارب مريرة مع المرأة، وكأن قلب كل منهما لا يتعلق إلا الخائنات. كما أن هذه القصيدة السابقة لشاعرنا تكاد تتفق وقصيدة كامل الشناوى "لا وعينيك" حيث إن كل منهما يأذن لحبيبته أن تبوح أو لا تبوح فلم يعد يعنيه من أمرها شيئا . واذا كان يس الفيل قد تغزل فى صدر شبابه وهو سن احتدام الشعور وفوران العواطف فقد تغزل فى مشيبه أيضا، ولا لوم عليه فى ذلك لأن "الشعور والتعبير لا ينتهيان بانتهاء الشباب ...ومتى بقى الشعور والتعبير فما الذى فنى إذن من مادة الغزل والغناء".[2]

ولشاعرنا قصائد عاطفية فى مشيبه تدل على نضج واكتمال للتجربة وامتلاك للأدوات،"وليس بغريب أن يجود الشاعر فى الشعر العاطفى وهو قد ترك زمن الفحولة الجسدية، إذ الشاعر بقلبه ومشاعره وما ينفعل به وله، وفى تاريخ الشعر من ترك الشعر العاطفى وهو صغير ومنهم من تعلق به وجوده وهو كبير وفى العقاد مثال صدق على هذا فى شعرنا الحديث ؛ إذ أجمل قصائده العاطفية كتبت وهو فى الستين من عمره وما بعدها".[3]

ومن القصائد التى كتبها يس الفيل وهو فى الستين من عمره قصيدة "كتاب الهوى" يقول فى مطلعها: [4]

---

١ - د. عبدالله مرور: الميلاد وحكايات الخريف ص ٦١.
٢ - عبدالحى دياب: مشاكسات ادبية الشركة التونسية للتوزيع تونس ١٩٧٦ ص٩٦، ٩٧.
٣ - د. عبدالله مرور :الميلاد وحكايات الخريف ص ٦٢.
٤ - صخب الأتنعة ص ٧.

شاب الزمان وتبض القلب ...ماشابا حتى النهاية يبقى الحب غلابـا
ترنو إليه ...فيخطو...باسـطا يـده ويقطع الأرض بالآمـال وثابـا
وتصطفيه ...فيـا أشـواقه اتتـدى هواك...ما زال فى الأعماق جوابا

ثم يقول فى نهاية القصيدة: (١)

يا من على البعد...فى الأحداق أحمله حسب الهوى فرحة أن يطرق البابا
هذا كتابـك فـى جيـدى أعلقـه تميمة تستفز الكـون إعجابـا
فقل لمن كابروا فى الحب ....معذرة حصادنا فى الهوى للغير ما طابا

ونراه فى شيخوخته يقترب من المرأة ولكن على استحياء . ففى قصيدة "حوارالنظرات" يدير حواراً بينه وبين فتاة تسأله إذا كان أحب أم لا . فيجيبها بأنه قد أحب ويصف من أحبه بالغرابة . ثم تواصل سؤالها عن هذا الحبيب الغريب وعن مكانه . وتستدرجه محاولة أن تعرف اذا كان يقصدها فيضطرب فى كلامه ومع ذلك لا يريد أن يصرح: (٢)

قالت :أما أحببت ؟ قلت تصورى أحببت ...لكن من أحب غريب
قالت:وكيف ؟أجبت :كان ولم يزل فى غفلة وعلى هـواى رقيـب
قالت :بعيد ؟قلت :لا هو فى المدى ناء ، ولا هو من يـدى قريـب
قالت :تحيرنى ..أجبـت معـذبى رغم الوضوح محير وعجيـب
قالت :أتقصدنى ؟تنهـد منطقـى أنا لا أزال عن السؤال أجيـب

فموقفه من المرأة قد تغير بعد أن سكنت ثورة العواطف فى قلبه بحكم تقدمه فى السن . وهدأت عاطفة الحب فى صدره واختفت تبعا لذلك لغة الهجاء والشكوى من قصائده . ونلحظ هذا التحول فى قصيدة "حنين "يقول:(٣)

---

١ - السابق ، ص ٨ .
٢- الميلاد وحكايات الخريف ، ص ٢٨.
٣ - السابق ، ص ٢٧،٢٨.

حتى متى هذا العناد وأنت لـــى  دنيا أتيه بها ...وأنـــت أمـــانى
فلترجعى ..أنا لم أزل متعطشـــا  والحب من لهب البعـــاد يعـــانى
إنى أحن إلى هواك ....وإن نأى  عنى هواك ...ولج فى عصيانى

وهكذا نرى يس الفيل فى شعره العاطفى كان يعبر عن نفسه وعما يجيش فيها من مشاعر وعواطف ، فجاءت قصائده تعبر عن مرارة تجارب الحب التى مر بها فالحب بالنسبة له كان "مأساة وجراح وعذاب واجتياح ليس فيه غير الدمع والأسى والقنوط والبؤس"[1] وليس أدل على هذا من قوله: [2]

عشنا بـــه أمـــلا يـــؤرق ليلنـــا  وبه صحونا متعبـــين حزانـــى
فى العمق منا بات يلهب أمننـــا  بســـياطه ويعيـــث فـــى دنيانـــا

كما أن معظم شعره فى الغزل كان تنويعات على لحن واحد وهو رؤيته المثالية للحب وعدم التمسك بالحبيب إذا غدر أو خان كما كانت المرأة فى كثير من الأحيان مصدر ألمه وحزنه وقلقه .

**الشكوى:-**

لم يجد يس الفيل عند المرأة ما يقابل عواطفه الحارة الجياشة ، ولم يجد عند الأصدقاء ما يوازى حبه لهم ، كما لم يجد عند الوطن ما يكافىء حبه وإخلاصه فانتهى به اهتمامه بالمرأة والأصدقاء والوطن إلى الإحباط والشكوى عندما وجد عطاءه لهم يقابل بالجحود والنكران ، فصاغ معاناته وشكواه منهم فى ألفاظ تتقطر ألماً وصوراً تنبض بالأسى والحسرة .

لقد كان يس الفيل يود أن يعيش دفء الصداقه حيث الحب والإخلاص وصدق المشاعر والأحاسيس ، وكان يتمنى أن يجد الصديق الذى يبوح له بخلجات

---

١- د.عبدالله سرور الميلاد وحكايات الخريف ، ص ٥٩ .
٢ - الميلاد وحكايات الخريف ، ص ٤٧ .

القلب والنفس ويكون مأمن السر والبوح ، ولما لم يجد عكف على ذاته يواسى نفسه بنفسه بعدما ضاق اتساع الحياة أمام عينيه :(١)

ولما لم أجد فى الناس خلا ... يقاسمنى الشداند والسرور
وفاض الكيل بى مما ألاقى ... وبت من الأحبة مستجيرا
وأرهقت التجلد والتغاضى ... وأتعبت المعابر والجسورا
بعدت..وطال فى الزمن اغترابى ... ونحيت العواطف والشعورا

القصيدة يسيطر عليها الإحساس بالغربة والشعور بالألم النفسى ، ويبدو أن شاعرنا عاش تجارب مريرة مع الأصدقاء والمرأة فتلقى منهم طعنات قاسية وبعدما قدم لهم كل ما لديه من خير، لم يلق من هؤلاء وتلك غير الجحود والنكران (٢).

بسطت إلى الصديق يدى وفاء ... وقلبى للحبيب غدا ظهيرا
فلا هذا أقام على وفائى ... ولا هذى تذكرت النصيرا
ولا أنا عند من طحنوا عظامى ... بقايا رحلة نضحت عطورا
ولا أنا قد سلمت وبات عرضى ... نقيا عند من فقدوا الضميرا
ولا السر المخبأ ظل سراً ... ينازل فى قداسته العصورا
ولكنى وذاك حصاد عمرى ... على فودى يصرخ مستجيرا
أعيش وإن أكن وحدى سلاما ... يهدهد خاطرى مرحا وقورا
ولست بناقم سكنوا قصورا ... بهذى الأرض أم سكنوا قبورا
أعيش مدى الزمان بكبريائى ... وإن صغروا مضيت أنا كبيرا

وكل ما يتمناه أن يدعه الناس وشأنه ، ولكن أنى يدع الناس بعضهم بعضا دون أن ينقبوا فى أسرارهم ، فيشكو ويتألم من تناول الناس لسيرته ، ولم يكتفوا بذلك بل حاولوا أن ينتزعوا ما يتدثر به من مقدسات [1]:

لكننى ....
هنا ، هناك،
فى غياهب المصير
فى مجاهل البشر
أموت ألف مرة ،
على اللسان
أموت كل عام
وتحرق الأكفان حول كعبتى
يد الجرئ والجبان
لأننى ....لأننى إنسان

فيشعربالضياع والغربة، ويحس بأنه محاصر، وتبدو فى قصيدة"الشوق العائد"نبرة اليأس القاتم:[1]

أخطو فى درب مجهول
يغتال وجودى ألف سراب
أرتاد الدفء فيطوينى ثلج الأيام
أرنوللظل فتكوينى لفحات الناس
وعلى دربى
وأنا أمضى
لا يبدو فوق الموج شراع

---

١- توقيعات حادة على الناى القديم ، ٢٨، ٢٩ .

فتلقانا هذه العبارات التى تدل على الحيرة والقلق : درب مجهول ، يغتال وجودى ألف سراب ، يطوينى ثلج الأيام ، تكوينى لفحات الناس ، لا يبدو شراع .

ونراه بمزج ألمه بجراح قلبه حتى غدت قصيدة "قلبى والجراح" أنشودة حزينة بسبب الجراح وطعنات الخطوب التى اجتمعت عليه فعذبته وأرقته ، وتبدو فى هذه القصيدة بعض مظاهر الرومانسية ، فالذاتيه والألم والضياع والغربة سمات ظاهرة فيها: (٢)

ما للجراح لها فى القلب متكأ؟ كأنما القلب نبع والجشا كلا

لم يندمل واحد إلا ويبرز لى جيش على مهجتى يعدو ويتكئ

يا ألف جراح .دعى قلبى فإن به من التمزق ما لم يحتمل ملأ

وفى نهاية القصيدة يحتضن اساه فى رومانسية مفرطة ويشعر بالعزلة والوحدة فيخاطب قلبه:-

يا قلب عذرا جراح العالم النأمت إلا جراحك قومى ما بها عبأوا

وكثيراً ما تلتقى فى شعر يس الفيل النزعتان الرومانسية والواقعية ، ففى قصيدة " المدينة والطائر الحزين" يرصد صوراً متباينة وحلات متناقضة لمجتمع حوى أصنافا مختلفة من البشر،فينتقض بإسلوب هادئ أوضاعا يأباها فى مجتمعه ، وهو فى رفضه لهذه الأوضاع ينشد المثال الأكمل لمجتمع بلا نقائص : (١)

أبصرت ذبابا لوطنى قالوا : دواد يتغنى

ويطاف به ويحج له وبقطب الأقطاب يكنى

أبصرت ضعاف الأخلاق فى ثوب رياء ونفاق

يدعون لزهد ويداهم لم تسأم نهب الأرزاق

---

١ - السابق ، ص ١١٧ ،١١٨.

أبصـــرت الكـــافر بالنـــاس　　يوصـــى بنقـــاء الإحســـاس
ويـــود لكـــل يـــد تحنـــو　　قبـــراً ليقـــيم الأعـــراس
أبصـــرت وإنـــى لفـــى حيـــره　　من عـــش لـــم يـــرحم طيـــره
وشـــراع ضـــل علـــى درب　　صـــخرى لـــم أســـلك غيـــره

ومما يشقيه فى ملامسته للواقع نفاق الناس وجهلهم وسفههم واصطدامه بأهل الرياء والكذب منهم ، وتبدو فى رؤيته روح الكآبة ، فتسيطر عليه حالة من القنوط تدفعه لإظهار اللوعة والألم ، فيقسم الناس إلى جهلة وكذابين ومغتابين وأدعياء : (١)

أكاد مما أرى فى النـــاس أرتـــاب　　فبعضهم جاهـــل والـــبعض كـــذاب
وبعضهم أملس الوجـــدان تحســـبه　　يفضى إليك بنصح ..وهـــو يغتـــاب
وبعضهم كالح العينين ..فى ثقـــة　　يحكى عن الحب..وهو الظفر والناب
وبعضهم...يالهذا البعض فى زمن　　فى الجهل والحمق لا تعييـــه أســـباب
الادعـــاء بهـــم تعلـــو منـــابره　　على هياكل من فى صـــدقهم ذابـــوا
حتى متى يا رياح الجهل تحرقنـــا　　دنيا ؟ ونحن لها فى الأرض ألبـــاب

وهو يحلم بالارتفاع إلى الكمال الإنسانى عن دنيا الواقع المرير ، ويتخذ من الحب وسيلة ليخفف عناء الحياة وضيقه بالناس ، فالحب يستل الحقد من القلوب ويشفى فساد النفوس وهو وسيلة السعادة الحقيقية :(٢)

من يزرع الحب من يرعى مشاتله　　لا يعرف الحقد لو تدميـــه أحبـــاب
الحب أبقى وأنقى لو ســـمت بكـــم　　أرض وصافحكم فى الأفق ترحاب
لكنكم وادعاء الصـــدق يفضـــحكم　　والجهل من حولكم كالضرع حلاب

---

١ - الميلاد وحكايات الخريف ، ص ٢٠.
٢ - السابق ، ص ٢٢.

ما زلتم الأمل المخنـوق تجرحـه  أنـى يَحلـق أظفـار وأنيـاب

وإذا كـان الشـاعر قد بدأ قصيدته ببداية تعبر عن روح الكآبه والتشاؤم فإنه ينهيها نهاية متفائلة للإحساس بالحب الذى يجلب السعادة: (١)

ورغم قسوتكم فالحب فى ملئـى  أبهى وأروع مما ينجب الغـاب

" ومما يلفت الانتباه فى شعر يس الفيل إحساسه الحاد بإنسانيته وضيقه بما يراه فى الناس من حوله من تداع وسقوط ". (٢) فهو يرفض الظلم ويشكو ويتألم من طعن الإنسان لأخيه الإنسان وهذا من فرط الرومانسية :(٣)

ويا أخى ...
يا آكلا ملامحى
يا سافكاً دمى
يا وارثا جنايتى
هلا رأيت مرة معالمى ؟
هلا ثئور مرة من أجل أمتى ؟
من أجل طفلة
تحلم بالمستقبل

ومن القصائد الدالة فى هذا المجال قصيدة " الموتى بلا قبور " التى تبرز صور الانتهازية والتخلف الفكرى ، فيثورعلى هؤلاء السادرين فى مواتهم ناعيا عليهم موقفهم هذا : (٤)

سئمت جحوركم
وسئمت ثرثرة بناديكم

---

١ - السابق ، ص ٢٣.
٢ - د.محمد مصطفى هدارة:من فرسان الشعر بتلايم غرب الدلتا الثقافى،الهيئة العامة لقصور الثقافة،ص ٥٢
٣ - توقيعات حادة على الناى القديم ، ص٣١.
٤ - الميلاد وحكايات الخريف ، ص ٣٣.

سئمت غباء ماضيكم

وهأنذا :

إلى المجهول أحمل ما تبقى لى من الأمل

وأرحل ..حاملا فى القلب مصباحى ،

أفتش عن زمان ضاع

وأبحث

لا أمل البحث عن فكرة

لعلى فى مرافئها

ومن ألفاف شاطئها

تعانقنى الحقيقة مره

حتى ولو بعد العناق أموت

فالمجهول الذى يود أن يرحل إليه هو أرض الواقع الجميل ، أو هو الحقيقة التى يبحث عنها ،وهو فى رحلته وبحثه يقاوم كل صنوف الخذلان التى تحاول أن تعوقه وتثنيه عن هدفه ، وإن كنا لا نعلم على وجه اليقين من الذين يقصدهم الشاعر فهو يعرفهم بدليل أنه يرمز لهم بما يثير الاشمئزاز منهم . فهم كلاب الصيد ونفايات الظلام ، وبقايا الليل ومواكب الجرذان :[1]

يظل محاربا زمنى

يمد جذوره فى تربة لم تستتم لضر إأوة العفن

يمد جذوره لغد

وبعد غد

وبعد البعد

ينبثنى

---

١- السابق ، ص ٣٦.

بأن مواكب الجرذان ..ما صمدت
ولا ضربت سياجا يوقف الطوفان
وأن جحورها فى القاع لم تسلم من البركان
وأن الفجر لم يعرف طريقا للسراديب
وأن الشمس لم تشرق على الموتى من الأحياء
موتوا .... يا نفايات الظلام وغادروا زمنى

ويصر على مقاومته وصموده لهم : (١)

أقاوم أنا ما زلت
لم أبرح مكانى بعد
لم أقذف سلاحى فى مهب الريح
فوق ما قاومت

ثم يلعن الزمن الذى ماجنى فيه غير الشقاء : (٢)

فى زمن ملعون ،
يتمطى فى ذاتى ألمى ،
يصرعنى ليلى ،
يجرفنى للقيد نهارى ،
تقذف بى للتيه ظنون

وللشاعر الحق فى أن يقول ما يشعر به ، ولكنى لا أوافقه على لعنة الزمن . فهو يشعر بسقوط الزمن ، والذى جعله يشعر بهذا اختلال القيم واهتزاز الصور حتى أن ما حدث فيه من غرائب وعجائب لا ينبغى أن يدعو للدهشة : (٣)

إن ضج الشارع كالحانه
وارتفعت أصوات جذلى
واندلعت فى الساح يمامه
تهتز كغصن لاعبه ريح مجنون

لا تعجب .....

لا تعجب أبدا

إن صعدت للصدر ظنون

واهتزت صور

واحترقت فى الليل شموع

وانهار الكبر المسجون

وتداعت جيف

لا تعجب ...

لا تعجب أبدا

إن سقطت لؤلؤة

عاشت فى قلب محال

وأصاب الأيام دوار

وتوالى فى الدرب جنون

لا تعجب ....

لا تعجب أبدا

أولسنا

أبناء القرن العشرين

وشعر يس الفيل فى الشكوى يعبر عن مشاعر صادقة لأنها نابعة عن معاناة وقد جاء شعره فى هذا الغرض صورة لنفسه المعذبة حيث عاش مآس مختلفة تنوعت خلالها موارد أحزانه .

وقد مر بنا فى الفصل الأول الحديث عن معاناة يس الفيل ، ويدت ألون هذه المعاناه متمثلة فى خوضه تجربة الحياة فى المدينة عندما انتقل من عالم القرية الوديع الهادئ إلى عالم المدينة المليئ بالصخب والضجيج ، فترددت فى شعره

مفردات الغربة والوحدة والألم ، ولمس الشاعر أسرار هذه المفردات ، وعبر عنها بالعديد من الصور الفنية المتنوعة التى كشفت عن صدمته وفجيعته ، كما بدا لنا فى لون آخر من ألوان معاناته وهو الصداقة والمرأة ، حيث قوبل وفاؤه بالغدر وعطاؤه بالنكران .

الشعر الديني:-

تناول يس الفيل هذا اللون من الشعر فى نهاية العقد الخامس من حياته بعد أن قطع أشواطا طويلة على درب الحياة ، وقد أدمت قدميه وعورة الطريق وانسلت الآمال والأمانى من بين يديه ، فأدرك أن الدنيا غرور ، وقد مضى من العمر أرذله ، فراح يطرق باب الرجاء والإنابة عله يحظى بأنوار الهداية والقبول .

والشعر الدينى عند يس الفيل غلب عليه موضوعان ،

الموضوع الأول : الابتهالات والمناجاة والضراعة إلى الله .

ومن أول ما كتب يس الفيل عام ١٩٦٨م هذا الابتهال الذى يدل على شفافية ، فهو لم يزل فى أول الطريق يحبو ، وقد هزه الشوق ودعاه الوجد [١]:

كلما داعب هذا الدهر نايه ... وبسفر الخلد يوما خط آيه

هزنى الشوق إلى محرابه ... علنى أحظى بأنوار الهدايه

غير أنى فى متاهات الأسى ... لم أزل أحبو وما أدركت غايه

" وإذا كان يس الفيل فى عام ١٩٦٨م يبتهل بذلك الابتهال الذى ينم عن وجد ويكشف عن شوق ؛ فإنه فى عام ١٩٨٤ وقد أدرك شيئا من الغاية بعد أن قال: (لم أزل أحبو وما أدركت غاية ) وذلك حين كتب قصيدته الجبدة " سبحانك" وكان الشاعر قد بلغ من العمر ما يتدبر فيه من تدبر ، وعانى من ويلات الحياة وإرهاق الطموح ما عانى ، نراه ينتقل بين العوالم متأملا مستقرئا ، منتشيا يتعجب

---

١ - الميلاد وحكايات الخريف ، ص٧ .

كيف لا ترى النور عين تبصر؟ وكيف يكفر ضعيف فقير يغنى قهار؟وكيف يبدد الإنسان عمره فى صحراء الشهوات ولا يرقى بأيامه تطلعا إلى بديع السموات ...؟ فهو الملجأ والصفح وهوساحة الرضى والمنح ، وهو النشيد والفرح ، وهو الظاهر والباطن ، وهو من بعد واحة العفو ، وجنة الصفح .يقول يس الفيل فى ارتعاشة إيمانية ،تضج من عالم وتشتاق إلى عالم:

يراك من لا يرى صفحا وغفرانا ... وملجأ، لو أشاحت عنه دنيانا
وساحة من رضى لو عانقته قوى ... وجرعته صنوف القهر ألوانا
ورحمة من عذاب الأرض لو جنحت ... به السفين ، وعانى فوق ما عانى
وفرحة فى زمان الحزن تحملـه ... لموكب يتهادى فيه نشوانا
وعالما من جلال لا يحيط به ... إدراك عقل سما بالعلم وازدانا
فكيف يشرك من عيناه شاخصة ... إلى السماء ترى فى الأفق أكوانا؟
وكيف يكفر من بالليل تطعمه ... فضلا وتسقيه من كفيك إحسانا ؟
وكيف والعمر أيام نقطرها ... على الثرى،كيف لا نحياه إيمانا[1]

وينظر الشاعر للكون ويتأمل فيه ، فيرى الله موجوداً فى كل شىء ، متحداً به ونظرية الحلول والاتحاد هذه وإن كانت نظرة صوفية إلا أن الشاعر لا يقصد بها المعنى الحرفى لها ، لأنها تسحب عنه صحة العقيدة ونحن نربأ به عن هذا ، لعله يقصد بذلك أن الله غامر لهذا الكون بفيض عطاياه ، وآيات عظمته ، إذ أفكاره تصدر عن إيمان عميق ، ولا يتطرق إليها أدنى شك : [2]

فى كل يوم أرى ما لست أدركه ... وما يحيرنى فكرا ووجدانا
فى هدأة الليل والأكوان غافية ... والعدل يقظان لا يختل ميزانا

---

١ - عبد الله سرور : الميلاد وحكايات الخريف ، ص ٣٤، ٣٥ .
٢ - . الميلاد وحكايات الخريف ، ص٦٧، ٨٦ .

في بسمة الصبح في إشراقة عبـرت ... بعد الظلام أزالت مـا تغشـانا
في صحوة الأرض في أعواد حنطتها ... وفي المروج بدت للخير عنوانا
في كرمة والصحارى حولهـا ظمـأ ... تحيا وتشرق أوراقا وأغصـانا
في رحلة الطيـر أميـالا تهاجرهـا ... ولا تضل طريقـا أينمـا كانـا
في منطق النحل في إبـداع مملكـة ... سمت به للذرا حكمـا وبنيانـا
في البرق،في الرعد،في الأنواء ترسلها ... قوى ينوء بها في الأرض أقوانا

ومما يلفت الانتباه في هذه القصيدة الاستطراد في سرد تلك الآيات الكونية ، مما نسمعه ونراه مبثوثا حولنا من كائنات الله ومخلوقاته ، وإذا كان الدكتور عبدالله سرور قد عاب هذا الاستطراد على الشاعر وعده قليل الغناء في الشعر حيث يقول " وهذا الاستطراد جيد من حيث الاستدلال والإقناع ، ولكنه قليل الغناء في الشعر ، فالشعر يختلف وظيفة وصياغة وتأثيرا عن الخطبة أو الموعظة الحسنة ، فإذا حسن ذلك في الإرشاد فإنه يغيض من بهاء الإنشاد ، إذ الشاعر في ذلك يعدد ولا يجود ، ويذكر ولا يشعر ، ويهتم بإيراد النماذج". [1] فأنا اختلف معه في هذا الرأى إذ الواقع أن الاستطراد مطلوب في هذا المقام والتفصيل فيه يكون أدق من الإجمال ؛ لأن محاولة استقصاء الظواهر التي تدل على وجود الله والناطقة بقدرته وعظمته أبلغ في هذه الدلاله وبخاصة إذا عرضت على هذه الصورة التي تثير الفكر وتدعو إلى التأمل .

وفي قصيدة بعنوان "إلهي" نرى فيها صورة من اللمسات الشاعرية التي تعبر عن نضج فني حيث تتكون من ستة مقاطع ، وتسير على نظام الرباعيات . وقد استفاد يس الفيل من هذا الشكل بغير من حرف الروى مما جعل القصيدة أكثر رحابة وبعدت عن أسلوب الوعظ والخطابة بالرغم من تقبلها لذلك .

---

١ - د. عبدالله سرور : الميلاد وحكايات الخريف ، ص ٣٧ ، ٣٨.

فيلجأ الشاعر للسماء فى دعاء ومناجاة وما أجمل أحاديث النجوى التى يهمس بها العبد فى خشوع وخضوع لمن يعلم السر وأخفى . إنها أحاديث السحر وترانيم الوفاق يرسلها فى هدأة من الليل عندما نامت كل العيون إلا عين الذى لا يغفل ولا ينام [1]:

وقد نامت عيون الناس حولى ... وعينك أنت وحدك تحتوينى
وقد شد الحنين إليك روحى ... وطار بها على أمل يقينى
أكاد إليك أصعد باشتياق ... يؤرق خاطرى بلظى أنينى
فقربنى إليك وخذ بكفى ... وكن عند الصراط إلى يمينى

ويؤوب إلى محراب الله يناجى ولا يمل المناجاة . فقد أرقته الذنوب وأرهقته المعاصى . ومن ثم فهو يطمع فى كرم الكريم وعفو الرحيم . ويقدم اعترافه بما جنت يداه بعد أن انقطعت به كل أسباب الرجاء إلا من الأمل فى رحمة الرحيم : [2]

إلهى ..ليس لى أمل ..وهدى ... خطايا العمر قد ملكت زمامى
ذنوبى فوق ما أنا أرتجيه ... وعصيانى بقلبى كالسهام
وأيامى وقد نزفت صديداً ... تكاد تخر من وهن أمامى
فهل يارب عفوك يحتوينى ؟ ... وعفوك يحتوى كل الأنام

فهذه القصيدة يبدو فيها صدق الإحساس ، وفطرة الشعور . فقد تاقت نفسه إلى محراب التوبة ، ومحاسبة النفس ، ومراقبة سيرها بعد أن زلت به قدمه على مر السنين . ومن مظاهر التوبة والإنابة هذه الدموع التى تهمى فى ظلام الليل واستصغاره لنفسه واحتقاره لها: [3]

---

١ - الميلاد وحكايات الخريف ، ص ٥٤.
٢ - السابق ، ص ٥٦،٥٥.
٣ - السابق ، ص ٥٦، ٥٧

إلهـــى قـــد أتيتـــك مســـتجيرا ... وهل مثلـــى بغيـــرك يســـتجير
دموعى فى ظلام الليـــل تهمـــى ... وأعماقى يمـــور بهـــا ســـعير
فإن أغضيت وجهك عن مســـئ ... فمن يا رب يـــرحم أو يجيـــر ؟
أتيتك تائبـــا ...فاقبـــل متـــابى ... وألهمنى الهـــدى أنـــى أســـير

ومن القصائد الأخرى التى تدور فى مجال الابتهالات والضراعة والمناجاة قصيدة "يا رب أنت ملاذى" ، "وسفه أعرى ما سترت" ، "وابتهال" ، "وابتهالات صائم" ، "وإليك نعود يا رحمن" ، "وعطاياك يا خالقى أعجزتنى" التى يقول فى مطلعها : (١)

عطاياك .. فاقت حدود الخيـــال ... وبرك ... حولى نما واســـتطال
وعطفك فجـــر يمـــد الشـــروق ... لقلـــب ..إليـــك يشـــد الرجـــال
وحلمك ...أنى تنثنـــت جـــذوعى ... ومالت ... عليها يلف الظـــلال
وعفوك عنى ..يثيـــر اشـــتياقى ... إلى نظرة منك يـــا ذا الجـــلال
وعونك- يا رب – حصن يقينى ... إذا ما توالـــت علـــى النصـــال
عطاياك .. فوق احتمال البيـــان ... وفوق احتمال السطور الطـــوال

الموضوع الثانى : المناسبات الدينية ، وإذا كانت المناجاة والابتهالات هى موضوع الأول الذى استحوذ على قدر كبير من الشعر الدينى عند شاعرنا ، فإن المناسبات حظيت بقدر كبير من القصائد كذلك ، ومن هذه المناسبات شهر رمضان ، والمولد النبوى ، ولكن أهم المناسبات التى حظيت بعدد وفير من القصائد شهر رمضان مثل : " رمضان مالك فى الشهور مثيل"و"رمضان" و" أبدا لمثلك تهرع الأقلام " " وأنت الذى تشرق الدنيا لمقدمه" .

---

١- صمود الجراح ، ص ٢٩.

ولعل أفضل ما كتبه يس الفيل بمناسبة شهر رمضان ، قصيدة " الحنين إلى مرافئ الهدى " وأفضلية هذه القصيدة على ما عداها يرجع - من وجهة نظرى على الأقل - إلى بعدها عن التقريرية والخطابية والحكم .

والمواعظ التى تمتلئ بها كثير من القصائد التى تدور حول هذه المناسبة والقصيدة تتكون من ثلاثة مقاطع ، كل مقطع منها يسلم إلى الذى يليه فى توافق وتناغم ، يقول فى مطلعها :(١)

رمضان أقبل
يا مشاعر زعردى
أنا لا أزال
بفيضه المتجدد
أخطو إلى ملأ الهدى
وبنهج أحمد أقتدى
وأراه فى جنبات روحى
فرحة تخضر ، تورق
تستوى أملا
تصب الدفء
تغمر موقدى
- رغم الشتاء تشدنى لتوقدى
يا سيدى
أنا مقصدى
أن تستقيم خطاى
إن غدى
يخاف من الغد

فينهى هذا المقطع بالخوف من الغد . ويجئ المقطع الثانى ليحيى الأمل فى النفوس مرة أخرى . حيث تنطلق المشاعر الخائفة من الغد فى نهاية المقطع الأول لتلوذ برمضان فى بداية المقطع الثانى . فيستل النفوس من غفوة الأيام ويحملها إلى ملأ ندى . ويرد من حجمت خطاه إلى صفاء المورد : (١)

رمضان أقبل
سيدى
يستلنا من غفوة الأيام
يحملنا إلى ملأ ندى
ويرد من جمحت خطاه
يرده نغما
يحن إلى صفاء المورد
يا سيدى
أرايت أنى
قد جمحت خطى
وأنى قد ألفت تمردى ؟
أنا لست أدرى
غير أنى أفتديك
بكل ما ملكت يدى
أظل أهتف ..ما حييت
أنا فداك
ولن أمل تجلدى
روحى إليك
مدى الزمان تحن

---

١ - السابق ، ص ١١.

تطلب أن تمد يديك
علّى أسترد خطاى
أدفع من على شرف المحبه يعتدى

ثم يجئ المقطع الثالث ويبدأه بعبارة " رمضان أقبل " التى تكررت مع بداية كل مقطع . وكأن قدوم رمضان هنا كان سببا فى عودة الصفاء . بعد أن ألفت النفوس التمرد وجمحت بها الخطى . وفى نهاية القصيدة يلجأ الشاعر الى الله يطلب منه العون والحفظ وهنا يحس الأمان لأنه لم يعد هناك غد يخشاه : (١)

رمضان أقبل
سيدى
وبه الصفاء يعود
يفترش القلوب
فتهتدى
ولنا بكل تجردى
آتيك
أنشدعونك الممتد
يحفظنى
ويشرق فى غدى
حسبى هواك
فإن صفحت
فلن أخاف من الغد
يا سيدى

---

١ - السابق ، ص ١٢.

ومن القصائد الدالة والمعبرة فى هذا المجال قصيدة " ترانيم رمضانية"[1] و" رمضان أنت بما نحب جدير"[2] التى يقول فيها :

تمضى الشهور بنا..ونحن مع الهـوى ... نحيا وفى فلك الضـياع نـدور
ونلوح أنت على الربى ..فـإذا بنـا ... شوق ..يكاد إلى سـناك يطيـر
نستعذب الحرمان ..وهـو مطيـة ... لجموح عصر ..للفنـاء يسـير
ونلوذ بالقرآن ..يـوقظ مـن غفـا ... منا وعربـد فـى مـداه فتـور
ونظل نسبح ..فى الضـياء مواكبـا ... جذلى..يطوف بها ويصعد ..نـور
حتـى إذا أزف الـوداع تراجعـت ... هذى المواكب ..تعتدى وتجـور

ونظراً لكثرة القصائد التى كتبها فى شهر رمضان ، جاء عدد كبير منها تغلب عليه روح المناسبة ودارت فى فلك التقليد وتكرار المعانى ، وابتعدت عن أسلوب الإبداع ومقتضياته كقصيدة "ابتهالات صائم" ،[1] "ودعاء"[2] ، "وخير الشهور"[3] ، "ورمضان"[4] فهذه القصائد تكاد تكون متفقة شكلا ومضمونها .

وقد تناول يس الفيل المولد النبوى فى عدة قصائد ، تحدث فى بعضها عن الأحداث التى وقعت قبل الميلاد كحادث اعتداء أبرهة على البيت الحرام ، وما دار بينه وبين عبد المطلب جد النبى ﷺ فى شأن البيت والإبل ، وفى نهاية القصيدة يرى أن الدنيا كلها كانت تنتظر قدوم النبى ﷺ فقد انتشر الظلم وعاث الناس فى الأرض فساداً ، وهذه المعانى نجدها فى قصيدة " الميلاد والأمل المتجدد"[5].

---

١ - أحزان على شفة الكمان ، ص ٩٩.
٢ - على صدأ الذكريات ، ص ٥٠.

ثم حاول الشاعر أن يخرج عن إطار المناسبة ويعالج بعض القضايا التى تعيشها الأمة الإسلامية . فينعى على المسلمين تفرقهم وتشتتهم ، ويحثهم على الاتحاد فيما بينهم والتأسى برسولهم : (٦)

حتى متى يا بنى دينى .. تفرقكم دنيا،وبصرفكم عن غاية سبب ؟
عودوا إلى الله عزما يبتغى فرجا إن الحقوق بهذ العــزم تســتلب
واستلهموا حكمة الميلاد وثبــتكم إن التأسى بطه خير مــا يحــب

ويذكر المسلمين بالانتصارات التى تحققت فى الماضى على يد خالد بن الوليد ، وصلاح الدين الأيوبى يوم أن كان المسلمون قوة ترهبها الأعداء : (١)

ذكر بنى ملتى بالأمس،واحك لهم عن خالد وحراب الفرس تلتهب
ذكر بحطين ، ذكر بالعبورضــحى واليأس يحصدنا ، والشك والريب

ومن القصائد الأخرى التى تناولت المولد ، قصيدة " فى ذكرى ميلاد الحبيب "و" الحب وأنشودة الميلاد ".

وبعد هذا العرض للشعر الدينى عند يس الفيل نستطيع أن نقول إن كثيراً من قصائد المناسبات التى نظمها وخاصة فى شهر رمضان ، كانت تدور حول الاحتفال والإحتفاء بهذا الشهر الكريم دون أن تتطرق إلى معالجة قضايا أو بث أفكار بعينها ، وكنا نود أن يستغل الشاعر هذه المناسبة وينطلق منها يدافع عن قضايا الإسلام والمسلمين .

**الرثاء:**

لعل الرثاء من أقل فنون الشعر قابلية للصور الزائفة ، أوالتعبيرات المفتعلة ، خاصة تلك القصائد التى تكتب فى رثا الأبوين ، أو الأصدقاء ، أو ممن لهم فضل علينا ، فلا مجال فيها للتزلف أوالرياء .

وأول ما يلفت الانتباه فى شعر يس الفيل فى فن الرثاء هذا العدد المحدود للقصائد التى تمثل هذا اللون فى مجموعاته الشعرية ، ولكن ما دعانى إلى إدراجه مع الأغراض الأخرى ، وجود بعض القصائد التى خرجت عن نطاق الرثاء العادى المألوف من تعداد مناقب الموتى ومآثرهم ، فعبرت عن خلجات نفس مكلومة ، وأحزان إنسان مفجوع .

من هذه القصائد ، قصيدة " دمعة فى يوم عيد " التى كتبها عام ١٩٦٩ فى رثاء أمه عندما حالت ظروف خاصة به دون قضاء العيد فى القرية ، فلم يزر قبرها ، ولم يترحم عليها ، فكانت هذه القصيدة التى تنبض بصدق العاطفة ، وحرارة الشعور يقول فى مطلعها : (١)

إذا ما طوف الأبناء يا أمى صباح العيد بالقرية
وألقوا حوله الأيات – كالعاده –
فشقوا جبهة الصمت
بآهات من الأفواه – ملتاعه –
فلا تنعى
إذا لم تنطلق شفتى مولولة على قبرك
إذا لم ينسكب دمعى على الصبار مدرارا
فما أنا للأبوة عاق
ولا أنا ميت الأشواق
ولا أنا فاقد الإحساس بالقلب الربيعى
ولكنى ...
هنا أقصيت
عن دارى

---

١ - توقيعات حادة على الناى القديم ، ص٩٥ ، ٩٦ .

وعن أهلى

وعن ولدى

هنا أقصيت يا أمى

وفى نهاية القصيدة يقدم اعتذاراً محملاً بالوفاء : [1]

إلى قبرك

لأمحو عار أيامى

فأنت المرفأ الحانى

وأنت الجنة العذراء

ترجعنى لأيامى

فلا شك أن العاطفة فى هذه القصيدة تعبر عن تجربة شعورية صادقة ، توحى بمشاعر الألم الناتجة عن رحيل أمه ، التى خلفت فى نفسه ، إحساسا بالأسى والفقد ، ولعل مرجع ذلك ما تتسم به علاقة الشاعر بمن يرثيه من خصوصية .

والرثاء عند بس الفيل ينقسم إلى قسمين ،

١- رثاؤه للأصدقاء ، فلم يرث إلا صديقا دفعه الوفاء وحق الصداقة إلى تأبينه .

٢- رثاؤه لبعض الأعلام فى الأدب والشعر ، وكان رثاؤه لهم يدل على ارتباط نفسى عميق ، فهو يشعر أن لهم فضلا ومكانة فى حياته ولذا اهتم برثائهم .

**أولاً : رثاء الأصدقاء :**

مع مطلع الستينيات كتب أولى قصائده فى هذا الغرض وكانت فى رثاء صديق له ، والقصيدة معانيها قديمة كثر تداولها على ألسنة الشعراء ، فيبدأها بوقع

---

١ - المصدر السابق ، ص ٩٨ .

هذا الخبر الأليم على نفسه الذى افقده صوابه ، فلم يصدق رحيله ، ولم يفق من هول الصدمة إلا عندما رآه محمولا على الأعناق : [1]

قالوا: رحلت كما حييت نبيلا ... والعيد أوشك أن يزور النيلا

فنطقت كلا كيف يرحل مثله ... قبل الوداع إذا أراد رحيلا

هى رحله لله ، يرجع بعدها ... ولسوف أصبر ان يغيب طويلا

ومضيت من ألمى،أكذب خاطرى ... أحيا على أمل أراه ضئيلا

ثم أشار بفضائله ، وأعمال الخير التى كان يقوم بها ، من بر بالفقراء ، وتشجيع لحفظة القرآن الكريم ، وتعمير للمساجد : [2]

البر بالفقراء كان عماده ... عشرون عاما أو تزيد قليلا

والقصيدة بصفة عامة هادئة لا حرارة فيها ولا نبض وكأنه أراد أن يؤدى بها واجبا رآه لزاما عليه دفعا لحقوق الصداقة والأخوة . ومثل هذه الأبيات نجدها فى بعض القصائد التى يبدو عليها التكلف والتصنع كقصيدة " مرثية إنسانة " التى كتبها على ما يبدو دون انفعال واضح منه ، ولذلك نلمس فيها روحا خطابية تقريرية أبعدتها عن فن الشعر الجيد .

ثم تخلى الشاعر عن هذه النغمة التقريرية الرتيبة ، واستطاع بمرور الزمن أن يتطور شكلا ومضمونا مثلما نجد فى قصيدته " المعجزة فى الزمن البخيل " التى كتبها فى رثاء صديقه الشاعر عبدالله شرف : [2]

شراع الأمانى

بأرض المحبه

أحنى خطانا

---

١ - أنغام لم تعزف أبدا ، ص ٢٩.

٢- المصدر السابق ، ص٣٠ .

٢ - همسات الصدى ، ص ٧.

وغيب عنا بليل روانا

والبحر ،

.. والزمن المستريب ..تغضن

يال الشتات

ومن ذا يلملم شمل الحزانى ؟

ومن يسترد لنا منتدانا

حزانى

حزانى

فقدنا الطريق إلى ملتقانا

حزانى التحمنا زمانا

ودرنا ،

حواليه دارت خطانا

ولم ندر أن الحبيب

على مذبح الحب كان الضحيه

لقد أذهلته الفجيعة ، وأصيب بالذهول ، فصور ما أصابه من جزع وفزع بسبب فقد صديقه ، وهذه القصيده تعد من القصائد الجيدة فى الرثاء ، حيث لم يعمد الشاعر إلى تعداد مناقب المرثى ومزاياه وفضائله ، ولكنه عرض لنا وقع هذا الخبر على نفسه وكانت هذه العبرات الصادقة التى تومض بين الألفاظ الحزينة هى زفرة نفس الشاعر.

وتلك الروح نجدها فى القصائد التالية "تواجد" ، و" ذكرى الأربعين " و"عبدالله شرف الألم المكبوت " وهذه القصائد جميعها فى رثاء الصديق والشاعر عبدالله شرف . وقد دعاه ارتباطه الحميم ببعض أصدقائه أنه عد موته عدم وفاء منه بالعهد كما جاء فى قصيدة " العودة الدامية " التى رثى بها الشاعر طاهر أبو

فاشا وكانا قد افترقا بعد مهرجان شعرى أقيم بالسويس على أمل اللقاء فى العيد القومى لهذه المدينة ، وشاء القدر أن يموت صديقه قبل الموعد المحدد للقاء ..فيعود مشاركا فى تأبينه ، وكانت هذه القصيدة : [1]

ويا راهب الليل مهلا ....
أما كان بينى وبينك ألا تغيب ؟
وأن لا تدعنى مشاعر تخبو
على عتبات الزمان الكئيب
وأنك لن تخلف الوعد،
لن تترك الطير يبكى غياب الأليف
لماذا تخليت يا طاهر القلب عنى ؟
وما كان ظنى ..بأنك تخلف لى موعدا ..
وها هو قلبى ، بكل الذى يعتريه
يكاد ..إليك..يمد اليدا

ثانياً : رثاء الأعلام :

فى عام ١٩٦٣ أقامت محافظة البحيرة المهرجان الأول للشاعر أحمد محرم ودعى له مجموعة من الأدباء والشعراء ، وكان لهذا المهرجان الفضل فى لفت الانتباه الى شاعر لم يلق من الاهتمام والتقدير ما يتناسب ومكانته فى الأدب العربى . وقد شارك يس الفيل بقصيدته " أغنية فى موكب الذكرى " يتجلى فيها الوفاء لشاعر يدين له بالفضل : [2]

اليوم لا غفلة ، اليوم لا عدم ... وإن ترنم أهل الشعر أو كتموا
مضى زمان الأسى راحت مظالمه ... وأقبل الفجر بالأضواء يبتسم

---

١- أغنية بلا وطن ، ص ١١٢.
٢ - من خارج أسوار الليل ، ص ٧٣.

ما عاد للظلم فـــى أرجائنـــا أثـــر ولا يد ينحنى مـــن ســـطوها قلـــم
ولا ضياع لأهل الفكر – يا أبتـــى ولا تناسى لمن ماتوا ومن ســـلموا
فإن تكن متَ بين الناس فى زمـــن مات الوجود به وانهـــارت الـــذمم
فإنك اليوم تحيا رغم ما صـــنعت يد الظلام ... فهذا عهد من ظلمـــوا
الشعر بين ربوع الضـــاد مملكـــة أنت الأمير بها ...والمفـــرد العلـــم

وأعتقد أن هذه القصيدة تعبر من طرف خفى عن إحساس يس الفيل تجاه قضية يخشاها كثير من الشعراء ، وهى عدم الاهتمام والتقدير فى حياتهم والنسيان والإهمال بعد مماتهم ، فمعظم الشعراء نرجسيون يرغبون فى الشهرة والذيوع والخلود ، وإن لم يتحقق لهم ذلك كالوا اللوم للمجتمع وللزمان .

ثم يقول فى نهاية القصيدة :

نم يا محرم واهناً إن فى وطنى عهداً يكرم من شادوا ومن نظم

وفى الذكرى السابعة لرحيل طه حسين كتب قصيدة " من أشواق الملاح العاشق وقد أبرزت هذه القصيدة قدرة الشاعر الفنية على التدفق والانسياب والنفس الطويل ، يقول فى مطلعها : [1]

أيامـــك الأولـــى شـــهود غرامـــى ومحبتى فـــى أنضـــر الأعـــوام
وحصاد عمرك فى الدروب يضمنى لمواكـــب مشـــبوبة الأقـــدام
ورؤاك – دون المبصرين – تشدنى للنجم – يا نجما يشق ظلامـــى

وبعد عدة أبيات أخذ يذكر مآثر الفقيد ، ويستعرض معاركه الأدبية والفكرية التى خاضها ، والصراعات السياسية التى كان فى بؤرتها :[2]

إنى أراك مع المعـــرى يقظـــة فى رحلـــة التـــأريخ للأعـــلام

---

١ ـ الميلاد وحكايات الخريف ، ص ٧٩.
٢ ـ المصدر السابق ، ص ٨٢ ، ٨٣.

وأراك فى أوديب أروع مبـدع عزفت يـداه مقـاطع الأنغـام
وأراك معذرة ..وكيف لما أرى أحصى من الأشكال والأحجـام
بركان فكر أنت مـوقظ نـاره وبكـل عقـل ناسـف الألغـام
وبكـل معتـرك تـرد حقيقـة لحقيقة شـمخت علـى الأفهـام

أما فى مرثيته للعقاد فنراه يذكر له موقفا وطنيا عندما قال كلمته المشهورة :"إن الأمة على استعداد لأن تسحق أكبر رأس فى البلاد يخون الدستور ولا يصونه" . فاتخذها أعداء العقاد حجة ضده وذهبوا يجمعون المقالات التى كتبها ضد سياسة الملك فؤاد حينذاك حتى صدرت الأحكام بسجنه تسعة أشهر بتهمة العيب فى الذات الملكية . التقط بس الفيل هذا الموقف الوطنى الجرئ للعقاد وأخذ يشيد بوطنيته [1]:

يا للفتـى ..ويـد الأيـام تسـلمه للغدر حينا فلا تطويـه أحـزان
وثورة الأمل المكبوت فـى دمـه تغلى ..فينطق والأيـام كتمـان
يزلزل العرش فى عزم ويعلنهـا حربا على ساسة فى دارهم هانوا
وينسف السور سور الليل منـدفعا للبرلمان ..وفى الأعماق بركـان
يقول : إن لهذا الشعب فى وطنى إرادة ..إن تطأ فالشعب طوفـان
سيسحق الرأس والأطراف يجرفها لن يستقر سوى الدستور ميـزان
الشعب أقسم أن يغتـال ليلكمـوا ما عاد يجـديكموا زور وبهتـان

وبمناسبة مرور خمسين عاماً على وفاة حافظ وشوقى يكتب قصيدة "العودة إلى النبع" وهى أشبه ما تكون باحتفالية بهذين الشاعرين الكبيرين ودورهما فى النهضه الأدبية الحديثة فى مصر [2]:

---

١- أغاريدى ، ص ١١.
٢ - المصدر السابق ، ص ٥١.

أحييتمـــا دوحـــة ناحـــت بلابلهـــا دهراً وعربد فى أرجائها ســقم
فأينعت وازدهت واخضر ذابلهـــا وأشرقت حولها الآيات والحكـــم
ولم تزل بكمـــا هيفـــاء ناضـــرة لم يمح نضرتها ضعف ولا هرم

وممن رثاهم كذلك، على الجارم ، وصالح الشرنوبى ، وفتحى سعيد ، وعندما ننظر فى تواريخ كتابة قصائد الرثاء عند يس الفيل وخاصة الأعلام نرى أنها كتبت بعد رحيلهم بفترة من الزمن ، مما جعل هذه القصائد تخرج عن نطاق البكاء والنواح فحاول تسليط الأضواء على موقف ما أو قضية بعينها فى حياة المرثى .

ومن خلال ما سبق يتبين أن الرثاء عند يس الفيل كان فى بعض الأحيان غاية فى نفسه عندما كانت القصيدة تدور حول مناقب المرثى ومكانته وأعماله وهذا نجده فى رثائه للأصدقاء ،وفى أحيان أخرى اتخذ الرثاء وسيلة لبث أفكاره عن الحياة والموت وكذلك بث المواعظ والعبر، وفى أثناء ذلك يذكر بعض المواقف الوطنية كما فى رثائه للعقاد ، أو يطرح بعض القضايا التى يجب الالتفات إليها كالاهتمام بالشعراء وتكريمهم كما فى رثائه لأحمد محرم .